الفصل العاشر

آراء المسلمين فى التربية والتعليم

سنعرض فى هذا الفصل طائفة من آراء المسلمين فى التربية والتعليم ، ونخص بالذكر أصحاب الآراء الخاصة التى فى تاريخ الفكر الإسلامى . ونحن نرمى من هذا الغرض أن نبين أموراً ثلاثة :

الأول أن المستشرقين الذين كتبوا فى التربية الإسلامية ، ومن تبعهم من المؤلفين فى الشرق ، درجوا على تقرير آراء معينة فى التعليم قالوا عنها إنها آراء المسلمين أو العرب . فيما يختص بأغراض التعليم ، ومناهجه ، وطرقه ، وأحواله . وهذا التعميم خطأ ، لأن أمور التعليم اختلفت باختلاف الأقاليم ، واختلاف أشخاص القائلين بها . وقد نجد اتفاقاً على بعض الأمور ، ولكنهم اختلفوا فى أمور أخرى كثيرة مما جعلنا نفرد لكل مفكر منهم كلمة خاصة تجمع رأيه ، وتبين ما امتاز به .

والثانى أن الآراء التعليمية لمفكر مّا وحدة متماسكة فى ذهن صاحبها ، فقد يذكر منهجاً خاصاً يلائم الغرض من التعليم الذى يذهب إليه وكذلك طريقة التعليم التى سلكها فى تحقيق ذلك المنهج ، فلا يصح أن ننقل جزءاً من مذهب مفكر فى التعليم ونترك سائر ما ذكره فى هذا الصدد .

والثالث أننا نذهب إلى أبعد من ذلك . فنقول : إن مذهب المفكر فى التعليم جزء أو صدى لمذهبه العام فى الحياة أو فلسفته . إذ كانت الفلسفة هى النظر الشامل للحياة . وقد التزمنا هذا المنهج فى بحثنا ، فبدأنا بذكر مذهب القابسى ، وهو مذهب أهل السنة . ثم بينا أن طريقته فى التعليم تلائم هذا المذهب ، وجمهور الفقهاء كانوا على مذهب أهل السنة ، وهذا هو السبب فى التشابه الشديد فى الرأى بين المتقدمين والمتأخرين فيما ذكره من فصول متناثرة خلال كتب الفقه ، وكتب

القرآن التي تعرضت لموضوعات التعليم . وإلى جانب هؤلاء ظهر فى البيئة الإسلامية طوائف أخرى تفكر بطريقة مختلفة عن جمهور أهل السنة ، كالمعتزلة والمتصوفة وغيرهم ، وسنرى فى هذا الفصل أن ما نذكره من مسائل التعليم المستندة إلى صاحبها هى صدى لمذهبه العام .

لهذا كله آثرنا أن نجمع أشهر آراء المسلمين فى التربية ، أو آراء أشهر المربين فى الإسلام فى مكان واحد ، لتكون الموازنة بينهم وبين القابسى الذى يمثل فريق الفقهاء بارزة جلية .

إخوان الصفاء والتعليم :

أما إخوان الصفاء وهم فريق من الفلاسفة ، ألفوا جماعة سرية ، واعتنقوا مذهباً سياسيًّا ، ويقال إنهم من الباطنية ، فطنوا إلى أهمية التعليم فى طبع النفوس على العقيدة فأشاروا إلى هذا بقولهم : «واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء ، كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب فيه شىء ، فإذا كتب فيه شىء حقًّا كان أم باطلاً فقد شغل المكان ، ومنع أن يكتب فيه شىء آخر ، ويصعب حكه ومحوه»[1] .

وقد نظروا إلى التعليم والتربية نظراً عقليًّا لا علميًّا .

عرفوا العلم بأنه : «صورة المعلوم فى نفس العالم ، وضده الجهل وهو : عدم تلك الصورة من النفس»[2] .

وعندهم أن طريق اكتساب المعلومات يكون بثلاث طرق : الأول الحواس الخمس التى بها يدرك الأمور الحاضرة فى الزمان والمكان . والثانى استماع الأخبار التى ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوان ، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً . والثالث طريق للكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معانى الكلمات واللغات والأقاويل بالنظر فيها[3] .

---

(١) إخوان الصفاء ج ٤ ص ١١٤ .

(٢) ج ٣ ص ١٩٨ .

(٣) ج ٣ ص ٣٨٤ .

والمعرفة كلها مكتسبة وليست فطرية . وأصل المعرفة هى الحواس . «والمعقولات التى هى فى أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس . والدليل على ذلك قوله تعالى : «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً»[٤] .

والمقصود بالمعقولات الموجودة فى أوائل العقول المعرفة البديهية مثل : الكل أعظم من الجزء وهذه لأوليات مكتسبة وقد رد إخوان الصفاء على القائلين بأنها «مركوزة» اعتماداً على رأى أفلاطون مما يأتى «وليس الأمر كما ظنوا ، وإنما أراد أفلاطون بقوله إن العلم تذكر أن النفس علاَّمَةٌ بالقوة فتحتاج إلى التعليم حتى تصير علامة بالفعل ، فسمى العلم تذكراً ثم إن طريق التعليم هى الحواس ثم العقل ثم البرهان»[٥] .

وأصحاب رسائل إخوان الصفاء مخطئون فى فهم أفلاطون ، لأن معنى رأيه «العلم تذكر والجهل نسيان» أن النفس كانت تعيش مع الآلهة فى عالم المثل فعندها معرفة بكل شىء ، ولما اتصلت بالجسد نسيت ، فإذا انكشف عنها ستار المعرفة ، فإنها لا تكتسب شيئاً جديداً ، بل تتذكر ما كانت تعرفه فى عالم المثل قبل اتصالها بالجسد .

ومذهب إخوان الصفاء شبيه بمذهب لوك الذى يعتبر أن أصل المعرفة هو الحواس ، وأنه لا شىء فى العقل لم يكن قبل ذلك فى الحواس .

فإذا كانت المعرفة مكتسبة فكيف الطريق إلى تحصيلها ؟ .

الطريق إليها بالاعتياد الذى يستند إلى المداومة والنظر . وفى ذلك يقولون : «واعلم بأن العادات الجارية بالمداومة فيها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر فى العلوم والمداومة على البحث عنها . والدرس لها ، والمذاكرة فيها ، يقوى الحذق بها ، والرسوخ فيها . .»[٦] .

---

(٤) إخوان الصفاء ج ٣ ص ٣٩٢ .

(٥) ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٦) ج ١ ص ٢٣٦ .

والمحاكاة الناشئة عن الاختلاط من وسائل نقل الأفكار . وطبع المعتقدات فى النفوس : «والمثال فى ذلك أن كثيراً من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم . تطبعوا بأخلاقهم . وصاروا مثلهم . وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا التى يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر . إما بأخلاق الآباء والأمهات . . . والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم فى تصاريف أحوالهم»(٧) .

والمحاكاة تسرى من الكبير إلى الصغير . ومن العالم إلى الجاهل ، ولذلك كانت للخواص والعلماء تقليداً وقولاً . أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليماً وتلقيناً(٨) .

ومن طرق كسب المعرفة أن تؤخذ عن معلم ، لأن للمعرفة شرائط : «ليس فى وسع كل إنسان معرفتها فى أول مرئياته . ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ ، فى تعلمه وتخلقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه»(٩) .

فطن إخوان الصفاء إلى قيمة المعلم وضرورته فى تلقين العلوم والمعارف ، ولكنهم اشترطوا فى المعلم شروطاً تتلاءم مع مذهبهم ، وتخدم أغراضهم السياسية ، وتتفق مع الغاية من نشر دعوتهم ، فقالوا : «واعلم أيها الأخ أن من سعادتك أيضاً أن يتفق لك معلم ذكى . جيد الطبع . حسن الخلق ، صافى الذهن ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب لمذهب من المذاهب»(١٠) .

ولا تتفق هذه الشروط إلا فى جماعتهم ، كما صرحوا بذلك قائلين : «ثم اعلم أن أصحاب الناموس هم المعلمون والمؤدبون والأساتذة للبشر كلهم . ومعلمو أصحاب النواميس هم الملائكة . ومعلم الملائكة هو النفس الكلية ، ومعلمها العقل الفعال ، والله تعالى معلم الكل»(١١) .

(٧) إخوان الصفا جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٨) جـ ٣ ص ٤٢٣ .

(٩) جـ ٤ ص ١٨ .

(١٠) جـ ٤ ص ١١٤ .

(١١) جـ ٤ ص ١٨ .

وأصحاب الناموس فى الرتبة الثالثة من جماعة إخوان الصفاء . ذلك أنهم رتبوا أنفسهم مراتب أربع بعضها فوق بعض .

١ - الأبرار والرحماء ، يشترط فيهم صفاء جوهر نفوسهم وجودة بالقبول . سنهم خمس عشرة سنة .

٢ - مرتبة الرؤساء وذوى الرياسات . عمرهم ثلاثون سنة ، يشترط فيهم مراعاة الإخوان وسخاء النفس .

٣ - رتبة الملوك ذوى السلطان . وهى القوة الناموسية الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة .

٤ - الرتبة الرابعة «وهى التى ندعو إليها إخواننا كلهم فى أى مرتبة كانوا ، وهى التسليم وقبول التأييد ، ومشاهدة الحق عياناً ، وهى القوة الملكية الواردة بعد خمسين سنة من مولد الجسد»[١٢] .

وقد نبه إخوان الصفاء فى غير موضع إلى أهمية التربية والتعليم والمحافظة فى طبع النفوس بالآراء والسجايا ، مما يصعب محوه بعد ذلك . ولكنهم أغفلوا مع ذلك حلقة أولى فى التعليم ، تعتبر من بنيانه كالأساس ، وهى مرحلة تعليم الصبيان حتى سن الخامسة عشرة .

ولعلهم تركوا الصبيان وشأنهم يتعلمون فى الكتاتيب لأن تعليمهم يتم بالتحفيظ لا بالتفهيم . فهم يحفظون مبادئ العلوم التى لا يستغنى عنها فيما بعد ، وفى ذلك يقولون : «كما أن الصبى إذا أحكم ما يراد منه فى المكتب استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم وسواده . كأنه كان يكتب به ، ويقرأ منه ويمحو ، ليحصل العلم فى نفسه محفوظاً ، من القرآن ، والأخبار ، والأشعار ، والنحو ، واللغة ، وما شاكلها مما يحفظ الصبيان فى المكتب»[١٣] .

وفى هذا النص إشارة إلى منهج تعليم الصبيان فى المشرق ، وليس فيه خلاف عن المنهج المتبع فى المغرب .

---

(١٢) جـ ٤ ص ١١٩ ١٢٠ .

(١٣) جـ ٣ ص ٦٠ .

ابن مسكويه :

وتكلم أحمد بن محمد بن مسكويه عن تعليم الصبيان فى كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . وقد درج فى هذا الكلام على طريقة الفلاسفة ، ولكنه كأغلب الفلاسفة المسلمين ، أخذ عن الفلسفة اليونانية دون أن يتبع فيلسوفاً بعينه ، ولكنه أخذ من كل مذهب ما أعجبه ، ومزج الآراء بعضها ببعض .

ويتضح تأثره الشديد بالفلسفة لا بالدين ، مما ذكره من الغرض من الأخلاق والطريق الموصل إلى ذلك الغرض ، فقال : غرضنا فى هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا ، لا كلفة فيها ولا مشقة . ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمى . والطريق فى ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هى وأى شىء هى ولأى شىء أوجدت ؟ »(١٤) .

وإذا انتهى الصبى من كمال التمييز يسمى عاقلاً : «إلى أن ينتهى إلى الغاية الأخيرة وهى التى لا تراد لغاية أخرى ، وهو الخير المطلق»(١٥) .

ثم إن الفضائل التى يتعودها الصبيان ، وينشئون عليها : «تسوقهم إلى مرتبة الفلاسفة العالية»(١٦) .

الحق والخير والجمال هى الغايات التى يتطلع إليها الإنسان وهذه الثلاثة هى بذاتها مثل أفلاطون الأخيرة .

والنفس جوهر مخالف للجسد ، لأن : «النفس تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال . . ولهذه العلة يزداد الإنسان فهماً كلما ارتاض وتخرج فى العلوم والآداب . فليست النفس إذن جسماً»(١٧) .

وتنقسم النفس إلى ثلاث قوى : النفس الناطقة والغضبية ، والشهوانية والناطقة هى القوة التى بها يكون التفكير والنظر فى حقائق الأمور ، والغضبية هى

---

(١٤) تهذيب الأخلاق ص ٢ .
(١٥) تهذيب الأخلاق ص ١٩ .
(١٦) تهذيب الأخلاق ص ٢١ .
(١٧) تهذيب الأخلاق ص ٣ .

التى يكون بها النجدة والإقدام على الأهوال ، والشهوانية يكون بها طلب الغذاء والملاذ .

وفضيلة النفس الناطقة الحكمة . وآلاتها الذكاء وهو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس ، والذكر وهو ثبات ما يخلصه العقل أو الوهم من الأمور ، والتعقل وهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هى عليه ، وصفاء الذهن وهو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ، وجودة الذهن وهو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم ، وسهولة التعليم وهى قوة للنفس وحدة للفهم بها تدرك الأمور النظرية (١٨) .

والمعلومات بعضها مكتسب ، وبعضها فطرى .

« فإن النفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مبادئ أخر . وأفعال لا تؤخذ عن الحواس ألبتة . وهى المبادئ الشريفة العالية التى تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وبالجملة فإن النفس إذا علمت أن الحس صدق أو كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس . وهذا العلم من ذاتها وجوهرها أعنى العقل » (١٩) .

وإذا أردنا التعبير عن هذا الرأى بأسلوب آخر ، نقول إن مادة المعلومات مكتسبة ، أما صورتها ففطرية .

والأحوال الخلقية بعضها مكتسب وبعضها فطرى « فمنها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج ، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولاً حتى يصير ملكة واختياراً » .

« ولهذا اختلف القدماء فقالوا من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنه ، وقال آخرون ليس شىء من الأخلاق طبيعياً » .

وقد اختار ابن مسكويه المذهب الثانى وهو أننا « ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . ولأن الرأى الأول يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض

---

(١٨) تهذيب الأخلاق ص ٤ .

(١٩) تهذيب الأخلاق ص ٧ ، ٨ .

السياسات كلها ، وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً» .

فالصبي قابل للتعليم والتأديب .

ثم وصف ابن مسكويه العلوم والفضائل التى يأخذ الناس بها أنفسهم منذ الصبا .

«فمن اتفق له فى الصبا أن يربى على أدب الشريعة ، ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ، ثم ينظر بعد ذلك فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن فى نفسه بالبراهين ، ثم ينظر فى الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان ، ثم يتدرج فى منازل العلوم ، فهو السعيد الكامل»[٢٠] .

فى هذا النهج نجد ابن مسكويه يمزج بين الدين والفضيلة والعلم على الأخص علم الحساب والهندسة ، وهذا شبيه بالفيثاغوريين ، وبمنهج أفلاطون .

ثم ذكر ابن مسكويه فصلاً فى تأديب الأحداث والصبيان خاصة نقل أكثره من كتاب بروسن[٢١] .

وأكبر الظن أن بروسن هذا نقل عن فلوطرخس ، ويقول العرب عنها إنها رسالة أفلاطون فى آداب الصبيان ، والتأديب فى هذه الرسالة ينصرف إلى أبناء الأشراف الذين : «لا يربون أولادهم بين حشمهم وخدامهم خوفاً عليهم من الأحوال التى ذكرناها»[٢٢] .

والكلام فى هذا الفصل ينصب على التربية والتأديب ، لا على كسب العلوم . وقد كانت عناية الروم والفرس متجهة فى الغالب إلى تهذيب الخلق وتعليم الأدب .

ولا ننسى أن الروم كانت دولة أرستقراطية انعزلت فيها الطبقات بعضها عن بعض ، على عكس الإسلام الذى سوى بين الناس فى الحقوق ، ومحا فوارق الطبقات .

---

(٢٠) ص ١٧ .

(٢١) ص ١٩ – ٢٥ : راجع مقدمة الأب لويس شيخو فى كتاب مقالات فلسفية لبعض مشاهير وفلاسفة العرب ص ٥٣ .

(٢٢) ص ٢٢

قال ابن مسكويه نقلاً عن هذا الكتاب ، وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين .

لذلك كانت آداب السلوك التي ذكرها بأهل الطبقة الرفيعة أليق .

ونفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ، ولا لها رأى وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء . فإذا نقشت بصورة قبلتها نشأ عليها واعتادها . وهذا يطابق الرأى الذى ذهب إليه من قبل ، وقد ساد الرأى بنصه عند أغلب المفكرين فى الإسلام .

وأولى الآداب بالتقديم أدب المطاعم . التى تراد للصحة لا للذة . ولدفع الجوع وحفظ صحة البدن . ولا يرغب الصبى فى الألوان الكثيرة ، وإذا جلس مع غيره فلا يبادر إلى الطعام ، ولا يحدق إليه شديداً ، ولا يسرع فى الأكل .

أما الحلوى والفاكهة فينبغى أن يمتنع عنها ألبتة إن أمكن ، وإلا فليتناول أقل ما يمكن ، فإنها تستحيل فى بدنه وتكثر انحلاله . ونقول إن هذا الرأى لا يتفق ومبادئ الطب الحديث .

«فأما النبيذ وأصناف الأشربة المسكرة فإياه وإياها ، فإنها تضره فى بدنه ونفسه ، وتحمله على سرعة الغضب والتهور والإقدام على القبائح ، ولا يحضر مجالس أهل الشرب إلا أن يكون أهل المجلس أدباء» : وهذا الرأى أجنبى لا إسلامى ، إذ المعلم ينهى عن الخمر لأن الدين حرمها ، ولا ينصح ألبتة بحضور مجالس الشراب ، ثم إن هذه المجالس يجتمع فيها الخاصة لا العوام ، وهذا يطابق ما ذكرناه من أن هذا الفصل يعالج تأديب الصبيان فى الطبقة الرفيعة .

ويمنع الصبى من النوم الكثير فإنه يقبحه ويغلظ ذهنه ، ولا يتعود النوم بالنهار ألبتة ، ويعود الحركة والمشى والرياضة .

فالغاية من هذه الآداب كلها هى أن يتعود الخشونة ويصلب بدنه . ولذلك : «يؤاخذ باشتهائه المآكل والمشارب والملابس الفاخرة . ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتى يتزين للرجال . وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض» .

وأبلغ مما سبق فى تعود الخشونة والرجولة : «أنه ينبغى إذا ضربه المعلم ألا يصرخ

ولا يستشفع بأحد ، فإن هذا فعل المماليك ، ومن هو خوار ضعيف» .

ومع ذلك فالصبي : «يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح إليه من تعب الأدب» .

ومما يجري مجرى الرجولة والأدب أن يحفظ الأخبار والأشعار التي تعوده لأدب : ويحذر النظر في الأشعار السخيفة ، وما فيها من ذكر العشق وأهله ، وما يوهمه أصحابها أنه ضربه من الظرف . ورقة الطبع ، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً» .

وطريقة التأديب إذا وقع من الصبي مخالفات هي التغافل أولاً ، ثم التوبيخ ، ثم الضرب ، «لأنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة» . ويمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل .

هذه هي خلاصة ما ذكره ابن مسكويه في التعليم والتأديب ، ومن الواضح أنه تأثر في آرائه بالفلسفة ، فأخذ عن أفلاطون ، وعن أرسطو ، وعن الفيثاغوريين والإسكندرانيين ، وعن الفرس وجعل من كل ذلك مذهباً جديداً في الأخلاق ، مؤتلفاً إلى حد كبير .

فهو يرمي إلى السعادة بالترقي إلى الحق والخير والجمال «مع حسن الحال في الدنيا ، وطيب المعيشة ، وجميل الأحدوثة»[٢٣] .

. وهذا الرقي يقبله المرء بالتأديب .

ابن سينا :

عرض ابن سينا في كتاب السياسة[٢٤] لواجب الرجل نحو ولده ، فبسط أحوال تعليمه وتأديبه بكلام يدل على نفاذ الفكر وصدق النظر ، مما هو جدير بمقام فيلسوف الإسلام الشيخ الرئيس ابن سينا .

---

(٢٣) تهذيب الأخلاق ص ٢١ .

(٢٤) مقالات فلسفية لبعض مشاهير فلاسفة العرب – بيروت ١٩١١ ، المقالة الأولى : كتاب السياسة لابن سيناء . وهناك شك في نسبة هذه الرسالة لابن سينا ، لبعدها عن أسلوبه .

وآراؤه تدل على حرية شديدة فى التفكير ، على العكس من ابن مسكويه الذى تقيد بآراء أفلاطون وأرسطو ، وأراد أن يطبقها على البيئة الإسلامية ، فخرجت لذلك مغايرة لطبيعة المسلمين . أما ابن سينا فينظر إلى البيئة الإسلامية ، ويتحرى الأساليب الملائمة لها فى التعليم والتهذيب ، بما يتفق مع العقل السليم .

«إذا فطم الصبى عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة ، فإن الصبى تتبادر إليه مساوئ الأخلاق ، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة» .

هذه هى نظرية تكوين العادة وصعوبة الإقلاع عنها ، وأغلب المسلمين على هذا الرأى ، ولهم فى ذلك حكم مأثورة مشهورة مثل : «التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر» إلى غير ذلك .

وقد رأينا القابسى أيضاً ينصح بتكوين العادات الحسنة منذ الصغر ، ومنها المبادرة بتعليم الصبى الصلاة .

«فإذا اشتدت مفاصل الصبى ، واستوى لسانه ، وتهيأ للتلقين ، ووعى سمعه أخذ فى تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين» .

وابن سينا هنا يرجع بالذاكرة إلى نفسه حين كان صبياً صغيراً ، فأحضر معلم القرآن ، ولم يبلغ العاشرة من عمره حتى أتى على القرآن وعلى كثير من الأدب ، كما ذكر فى سيرة حياته .

فهو يريد أن ينشئ أبناء المسلمين على الصورة التى نشأ هو عليها ، ولا يجد فى ذلك حرجاً أو مطعناً ، ولهذا أقر هذه الطريقة التى تبدأ بتعليم القرآن والكتابة ، كما جرت العادة فى الكتاتيب .

ويرى ابن سينا : «أن يروى الصبى الرجز ثم القصيد» ، وهذا الاهتمام الشديد بالشعر والنص عليه ، دليل على عناية ابن سينا بالفن وأثره فى النفس ؛ وقد كان ابن سينا شاعراً نظم القصيدة العينية فى النفس ، وله قصيدة فى المنطق . وأرجوزة فى الطب ، وعدة قصائد فى الزهد وغير ذلك فلا غرابة أن يحث على تعليم الشعر ، وقد رد البحور الشعرية إلى الأوزان الموسيقية فى «جوامع علم الموسيقى» .

ومن رأى ابن سينا أن يكون التعليم جميعاً فى المكتب ، لا فردياً على مؤدب خاص . وكانت عادة الأغنياء والأشراف اتخاذ المؤدبين لأولادهم . «لأن انفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب لضجرهما» . ولأن الصبى ألقن ، وهو عنه آخذ وبه آنس» .

ووجود الصبى مع غيره من الصبيان «أدعى إلى التعلم والتخرج فإنه يباهى الصبيان مرة ويغبطهم مرة ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة . ثم إنهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق ، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم» .

وليس فى هذا الكلام جديد عما ذكر القابسى الذى حبذ المخايرة بين الصبيان ، وأجاز اتخاذ العريف لما فى ذلك من فائدة فى تخريج الصبيان :

وإنما الجديد النصيحة لأبناء الطبقة الرفيعة أن يتصلوا بأبناء الشعب فى لكتاتيب مما يدل على تأصل الروح الديمقراطى فى قلب ابن سينا . ولم يكن ابن مسكويه على هذا الرأى ، لأن رسالة تأديب الأحداث التى نقلها فى كتابه إنما تصف تعليم صبيان الخاصة فقط وينصرف الرأى فيها إلى المؤدب وتلميذه ، لا المعلم وصبيانه .

وقيمة المعلم عند ابن سينا فى خلقه وسيرته ، لذلك ينبغى أن يكون : «عاقلاً ، ذا دين ، بصيراً برياضة الأخلاق ، حاذقاً بتخريج الصبيان ، وقوراً رزيناً ، بعيداً عن الخفة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى» .

ورأى ابن سينا فى العقوبة لا يخرج عما هو معروف عند فقهاء المسلمين ، وعما ذكر القابسى ، فهو بالترهيب والترغيب ، والإيناس والإيحاش ، والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى والضرب بعد الإرهاب الشديد .

ونحب أن نقف قليلاً عند رأى جديد لابن سينا لم يسبقه إليه أحد فى الإسلام ، وهو من الآراء الحديثة فى التربية وعلم النفس . ذلك هو مسايرة ميول الصبى ، ثم توجيه الصبى إلى الصناعة أو المهنة التى تتفق مع ميوله .

ذلك أنه : «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه ، وأنه لوكانت الآداب والصناعات تجيب ، وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ، إذن ماكان أحد غفلاً من الأدب ، وعارياً من صناعته ، وإذن لأجمع الناس كلهم على أختيار أشرف وأرفع الصناعات» .

«وينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك» .

ولكن ابن سينا لم يوضح لنا طريقة اختبار الذكاء ، وميزان الطبع والقريحة . ولعله ترك ذلك لفراسة المعلم ورأيه ، والجديد في علم النفس الحديث هو ابتكار اختبارات الذكاء ، واختبارات الشخصية .

الغزالي :

ذكرنا التربية عند إخوان الصفاء ، وعند ابن مسكويه ، وعند ابن سينا ، لنبين ما يراه بعض الفلاسفة في تعليم الصبيان .

ونذكر الآن رأي المتصوفة ، وسنتخذ الغزالي ممثلاً لهم ، لأنه أوفى مَن كتب في هذا الموضوع ، ولأن آراءه أوسع انتشاراً من غيره .

يرى أبو حامد الغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هجرية ، أن قيمة المعلم كبيرة في انتشار المذاهب المختلفة ، ونشوء الناس عليها ، والمذهب : «هو نمط الآباء والأجداد ، ومذهب المعلم ، ومذهب أهل البلد الذي فيه النشء وذلك يختلف باختلاف البلاد والأقطار ، ويختلف بالمعلمين»[٢٥] .

وليس غريباً أن ينبه الغزالي على قيمة التعليم والمعلمين ، وهو الذي كان معلماً في إحدى مدارس بغداد ، ثم اعتزل التعليم وصناعته ليكون معلماً للناس كافة عن طريق كتبه التي ألفها ، وأكبرها «إحياء علوم الدين» .

وبعد أن طاف الغزالي بجميع المذاهب في الكلام والفلسفة ، انصرف عنها ، وطعن عليها ، وآثر طريق التصوف .

(٢٥) ميزان العمل ص ١٦٢ .

ولكنه اعتنق هذا المذهب عن روية وتفكير ، لا عن اتباع وتقليد .

وجانب العمل متفق عليه من الصوفية ، فهو محو الصفات الردية ، وتطهير النفس من الأخلاق السيئة ، ولكن جانب العلم مختلف فيه . فإن الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها ، وتحصيل ما صنفه فى البحث عن حقائق الأمور ، بل قالوا الطريق المجاهدة بمحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكل همة على الله . وأما النظار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإفضاءه إلى المقصد ، ولكن استوعروا هذا الطريق . . فالاشتغال بتحصيل العلوم . . أولى فإنه يسوق إلى المقصود سياقة موثوقاً بها(٢٦) .

وأفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها ، هو الله الصانع المبدع الحق الواحد ، وهذا العلم ضرورى واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ، وهذا العلم لا ينفى سائر العلوم ، بل لا يحصل إلا بمقدمات كثيرة . وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى (٢٧) . وهذه المقدمات التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ ومن الآلات علم كتابة الخط(٢٨) .

وإلى جانب ذلك فالعلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه وصف كمال الله سبحانه . وتعرف فضيلة العلم بثمرته ، وهى القرب من الله تعالى . أما فى الدنيا فالعز ، والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام فى الطباع(٢٩) .

والعلم الذى هو فرض عين على كل مسلم : اعتقاد وفعل وترك ، أى اعتقاد بالله ، وفعل بما أمر الله ، وترك لما نهى عنه .

والعلم الذى هو فرض كفاية : فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، والحساب فإنه ضرورى للمعاملات وقسمة الوصايا والمواريث(٣٠) .

---

(٢٦) ميزان العمل ص ٣٤ .

(٢٧) الرسالة اللدنية ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢٨) الإحياء جـ ١ ص ١٥ .

(٢٩) الإحياء جـ ١ ص ١١ .

(٣٠) الرسالة اللدنية ص ٤٨ .

وهنا نرى أن الغزالى يقترب من رأى القابسى وهو رأى أهل السنة ، الذين يجعلون تعلم القرآن والصلاة وبعض النحو والخط من العلوم الضرورية ، أما الحساب فليس بلازم على المعلم إلا أن يشترط عليه .

أما الطريق إلى تحصيل العلوم فهو على وجهين :

١ – التعلم الإنسانى وهو التحصيل بالتعلم من خارج .

٢ – التعليم الربانى وهو الاشتغال بالتفكر من داخل .

والتفكير استفادة النفس من النفس الكلى ، والنفس الكلى أشد تأثيراً وأقوى تعليماً من جميع العلماء والفضلاء[٣١] إلى أن قال : «والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة كالبذر فى الأرض ، والتعلم هو إخراجه من القوة إلى الفعل» . وليس ما يقوله الغزالى مبتكراً ، فهذا مذهب ابن سينا والفارابى من قبل ، وكلاهما أخذ عن الأفلاطونية الحديثة .

وقد مزج الغزالى هذه الآراء الفلسفية بما يقوله المتصوفة ، ومما لا يخرج عن ذلك وإنما بأسلوب آخر . «وقال قوم من المتصوفة : إن للقلب عيناً كما للجسد . فيرى الظواهر بالعين الظاهرة ، ويرى الحقائق بعين العقل»[٣٢] .

والإنسان لا يقدر أن يتعلم جميع الأشياء : الجزئيات والكليات ، وجميع العلوم ، بل يتعلم شيئاً ، ويستخرج بالفكر من العلوم شيئاً ، وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكر ، وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب[٣٣] .

وهذا المذهب فى اكتساب المعرفة عن طريق الحس أولاً ثم بالفكر والقياس والحدس ، هو مذهب ابن سينا ، كما هو مذكور فى النجاة وغيره من الكتب .

أما التعليم الربانى فعلى وجهين : إلقاء الوحى بأن يقبل الله تعالى على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويصير العقل الكلى كالمعلم ، والنفس

---

(٣١) الرسالة اللدنية ص ٣٩ .

(٣٢) الرسالة للدنية ص ٣٠ .

(٣٣) الرسالة اللدنية ص ٤٠ ، ٤١ .

القدسية كالمتعلم ، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس من غير تعلم وتفكر .

والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها . والعلم الذى يحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . ويكون لأهل النبوة والولاية[٣٤] .

ويحصل العلم اللدنى باتباع الطرق الآتية :

١ - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر منها .

٢ - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة .

٣ - التفكر ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تفكرت فى معلوماتها بشروط التفكر . ينفتح عليها باب الغيب[٣٥] .

فخلاصة مذهب الغزالى أن : «الأولى أن يقدم طريق التعليم فيحصل من العلوم البرهانية ما للقوة البشرية إدراكه بالجهد والتعليم . . فإذا حصل ذلك على قدر إمكانه . . فلا بأس بعده أن يؤثر الاعتزال عن هذا الخلق ، والإعراض عن الدنيا ، والتجرد لله»[٣٦] .

وهذا الرأى هو صورة من حياة الغزالى ، لأنه لم يتصوف إلا فى آخر حياته ، بعد أن اشتغل بتحصيل العلوم .

ونعود إلى الكلام على تعليم الصبيان .

وينبغى أن نعلمهم منذ الصغر ، لأن التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر[٣٧] . والطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش فيه[٣٨] .

ثم نقل الغزالى فى هذا الفصل الخاص برياضة الصبيان فى أول نشوئهم ووجه تأديبهم ما ذكره ابن مسكويه فى كتاب تهذيب الأخلاق نقلاً عن بروسن ، وذلك بنفس الترتيب فى الآراء ، وبألفاظه فى أكثر المواضع ؛ وكل ما فى الأمر أن الغزالى

---

(٣٤) الرسالة اللدنية ص ٤١ ، ٤٤

(٣٥) الرسالة اللدنية ص ٤٨ .

(٣٦) ميزان العمل ص ٣٨

(٣٧) ميزان العمل ص ٣٨ .

(٣٨) الإحياء جـ ٣ ص ٦٢ .

حذف منه الأغراض الفلسفية التي شرحناها سابقاً ، ووضع أغراضاً جديدة تتلاءم مع مذهبه في التصوف قال في بيان الغرض من تأديب الصبيان : «وإنما المقصود منها أن يقوى بها على طاعة الله . . . وأن الكَيِّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى»[٣٩] .

وذكر الغزالي في مكان آخر الشروط التي ينبغي أن يأخذ بها المتعلم[٤٠] وهي :

١ - تقديم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ، إذ لا تصلح عبادة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق .

٢ - أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن .

٣ - ألا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية .

٤ - أن يحذر الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع .

٥ - ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ، ولا نوعاً من أنواعه ، إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته . . . فإن العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض .

٦ - ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه .

٧ - ألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض .

٨ - أن يعرف السبب الذي به يدرك الشرف في العلوم ، فإن ثمرة علم الطب الحياة الدنيوية ، وثمرة الدين الحياة الأخرى ، فيكون علم الدين أشرف .

٩ - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضائل ، وفي المآل القرب من الله . . . ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة

---

(٣٩) الإحياء جـ ٣ ص ٦٤ .

(٤٠) الإحياء جـ ١ ص ٤٣ – ٤٧ .

obeikandl.com

الأقران ، ولا ينبغى أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم التى هى فرض كفاية .

١٠ – أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره .

أما واجبات المعلم فهى :

١ – الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه .

٢ – ألا يطلب على العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً .

٣ – ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وأن ينبهه أن الغرض من طلب العلوم القرب من الله دون الرياسة والمنافسة والمباهاة .

٤ – أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ .

٥ – ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه .

٦ – أن يقتصر المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما يبلغه عقله .

٧ – أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ، ويشوش عليه قلبه .

٨ – أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله .

فى القواعد السابقة بعض المبادئ فى التعليم تعتبر من أسمى ما وصل إليه علماء التربية وأهمها الترابط بين العلوم ، والبدء بالأهم فالمهم ، وبالواضح قبل الغامض . وبالأسبق فى الترتيب .

ونأخذ على الغزالى ما يعيبه على المعلم من أخذ الأجر على التعليم ، فهذا من الآراء المثالية التى لا تتفق مع الواقع . وهذا يختلف عن رأى القابسى .

ولكن الغزالى بسط هذه المبادئ العامة فى إيجاز دون أن يخوض فى تفصيل شئون التعليم والتربية . فلم يتكلم على المنهج ، أو مكان التعليم ، أو اليوم المدرسى ، أو العقاب ، أو اختيار الصبيان إلى آخر ما جاء فى رسالة القابسى .

وبعد فإننا نرى أن رأى الغزالى فى التعليم جزء من مذهبه فى التصوف ، وهو

مخالف بعض الشيء لأهل السنة .

فهو يتفق معهم فى الغرض وهو معرفة الله تعالى ، ومعرفة العبادات التى أمرنا بها ، وأنواع الأفعال التى نهانا عنها .

ولكن الطريقة مختلفة ، فهو ينصح بطريق الصوفية وهو مجاهدة النفس ورياضتها للوصول إلى قرب من الله . وقد جرح الغزالى الفقهاء والمتكلمين كما جرح الفلاسفة ، فقال : «فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين»(٤١) .

الزرنوجى :

ومن الكتب الذائعة الذكر عن العرب : «تعليم المتعلم طريق التعلم» لبرهان الدين الزرنوجي المتوفى سنة ٥٩١ هـ . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية .

ويعده الدكتور إبراهيم سلامة ، إلى جانب كتاب القابسى ، أهم كتابين فى التربية . وقد ترجم عناوين فصوله ، ثم عرض بعض آرائه فى إيجاز(٤٢) .

وعندنا أن السر فى شهرة هذا الكتاب راجع إلى عنوانه من جهة ، وإلى أنه كتاب خاص بالتربية والتعليم فقط ، ومثل هذه التآليف الخاصة قليلة عند المسلمين .

والرأى عندى أن قيمة هذا الكتيب ضئيلة الشأن .

فهو صغير الحجم لا يكاد يبلغ فصلاً من الفصول المؤلفة فى التربية فى كتب الفقه .

ولم يأت صاحبه بجديد ، وإنما ذكر ما هو معروف متداول ، ومزج الآراء بالحكايات وبعض الأشعار والأمثال .

وكثيراً ما ينزل إلى مستوى العامة فى الاعتقاد بأوهام لا تستند إلى أساس علمى . قال فيما يمنع الرزق كلاماً لا ينبغى أن يقوله العلماء ، منه : «كنس البيت فى الليل ، وحرق قشر البصل والثوم ، والامتشاط بمشط منكسر ، والتعمم قاعداً ،

---

(٤١) الإحياء جـ ١ ص ٤٦ .

(٤٢) انظر Bibl. Salama هذا وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية أخيراً .

والتسرول قائماً»(٤٣) .

وهو يجرى فى هذا الكتاب مجرى أهل السنة المائلين إلى التصوف ، حين اشترط لطالب العلم أن : «يشتغل بالشكر باللسان والجنان ، ويرى الفهم والعلم والتوفيق من الله ، ويطلب الهداية من الله بالدعاء منه والتضرع إليه ، فأهل الحق وهم أهل السنة والجماعة طلبوا من الله تعالى»(٤٤) .

وكان الغزالى من قبل متصوفاً ، ولكنه كما ذكر عن نفسه أنه من فريق النظار ، أى أهل النظر العلمى . ولذلك أوجب الغزالى معرفة العلوم فى أول العمر ، وهى التى تحصل بالدأب والاجتهاد ، ثم ينقطع الإنسان إلى التصوف فى آخر العمر بعد تحصيل العلوم . أما الزرنوجى فإنه بعد أن نصح لطالب العلم بالمذاكرة والمناظرة والتأنى والتأمل ، عاد فذكر أشياء لا توصل إلى العلم ، وإنما تصلح لغايات أخرى . «قال أبو حنيفة – إنما أدركت العلم بالحمد والشكر»(٤٥) والحمد والشكر يأتيان بعد تحصيل العلم ، وليس الحمد والشكر من أسباب تحصيله . ثم قال : «ولا يعتمد على نفسه وعقله بل يتوكل على الله ويطلب الحق منه(٤٦) .

وهذه النصائح وأمثالها هى التى بثت فى المسلمين روح التواكل والكسل وعدم الاعتماد على النفس .

وبدأ الزرنوجى ببيان أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهو علم الحال كالصلاة والزكاة وما إلى ذلك ، وبعد ذلك ينتقل إلى علم المآل .

وينبغى لطالب العلم أن يصبر على أستاذ بعينه ، ولا يشتغل بفن قبل أن يتقن الأول ، وأن يعظم أستاذه ويوقره ، وأن يجود الكتابة ولا يقرمط «وينبغى ألا يكون فى الكتاب شىء من الحمرة ، فإنها صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف»(٤٧) .

وهذا منتهى الغاية فى الجمود ، والتعسف فى الرأى دون علة معقولة ، إذ أى

---

(٤٣) تعليم المتعلم ص ٧١ – ٧٢ .

(٤٤) ص ٤٨ .

(٤٥) ص ٤٧ .

(٤٦) ص ٤٨ .

(٤٧) ص ٢٥ .

عيب فى الكتابة بالمداد الأحمر.

ولذة العلم من دواعى تحصيل العلم. أما الكسل والنسيان فعلاجهما تقليل الطعام. وينبغى أن يبدأ المتعلم بما هو أقرب إلى فهمه، ولا يحفظ إلا بعد الفهم.

أما التكرار فيتبع فيه الطريقة الآتية: وهى خمس مرات أول يوم. ثم أربع مرات فى اليوم الثانى، وثلاث مرات فى اليوم الثالث، ومرتان فى اليوم الرابع، ومرة فى اليوم الخامس فهذا أدعى إلى الحفظ[٤٨].

وقد ضبط علماء التربية الحديثة طريقة التكرار بالتجارب، فوجدوا أن التكرار الموزع على أيام كثيرة، أفضل من التكرار المستمر. وهذا يشبه ما يقوله الزرنوجى، ولكنه لا يعتمد فيه على التجارب.

ابن عبد البر:

ونعرض قبل أن نختتم هذا الفصل بما ذكره ابن خلدون، لكتاب آخر فى التعليم هو «جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغى فى روايته وحمله» لابن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

وصاحب هذا الكتاب من أهل الحديث، ويتبع منهجهم فى التأليف والتفكير، فهو لا يجادل ولا يسوق البراهين والأدلة، وإنما يتلمس آثار السلف، وقد ذكر المؤلف هذا المنهج فى المقدمة، فقال بعد ذكر الموضوعات التى سيعرض لها ثم يجيب عنها، «مما روى عن سلف هذه الأمة، لتتبع هديهم، وتسلك سبيلهم، وتعرف ما اعتمدوا عليه من ذلك»[٤٩].

والجزء الثانى من الكتاب دفاع عن طريقة أصحاب الحديث، وفى وجوب الأخذ بالحديث فى إقامة العلم، وأتباع السلف، وأن الرأى سبب فى الوقوع فى البدع.

فطريقة ابن عبد البر تماثل طريقة القابسى فى التأليف، إلا أن القابسى أكثر

(٤٨) ص ٥١.

(٤٩) جامع بيان العلم، جـ ١ ص ٣.

حرية ، لأنه يرجح آراء الفقهاء إذا اختلفت ، ويسلك فى الرواية السبيل التى تتفق مع العقل وتلائم طبيعة الأشياء ، أما ابن عبد البر فيذكر الرأى ونقيضه بما ورد من أحاديث وآثار دون أن يرجح أحدهما على الآخر ، مثال ذلك ما جاء فى ذكر النهى عن كتابة العلم ، ثم ما جاء عن الرخصة فى كتابة العلم[٥٠] .

وبدأ المؤلف بالكلام عن وجوب طلب العلم معتمداً على الحديث : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» بعد أن خرَّج هذا الحديث من عدة طرق ؛ ثم بيَّن أن العلم منه فرض عين ومنه فرض كفاية ، وأن الأول هو معرفة أصول الإسلام ، كالاعتقاد بوجود الله ، والصلاة ، والزكاة ، والحج .

ثم استطرد إلى الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها طالب العلم ، كالصبر والزهد فى الطعام والمال والرياسة .

ونصح المؤلف أن يكون طلب العلم فى الصغر ، لأن من تعلم العلم وهو شاب كان كوشم فى حجر ، ومن تعلم العلم بعد ما يدخل فى السن كان كالكاتب على ظهر الماء[٥١] .

ابن خلدون :

واتبع ابن خلدون – المتوفى عام ٨٠٨ هجرية – مذهباً مخالفاً للفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة وأهل السنة ، وهو المذهب الذى ابتدعه وسبق به عصره ، نعنى المذهب الاجتماعى .

ذلك أن الإنسان حيوان مفكر اجتماعى ، خاضع فى صلة بعضه ببعض لقوانين اجتماعية ، فى جميع أمور معاشه وعمرانه

ويمتاز الإنسان عن الحيوان بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه ، والتعاون عليه بأبناء جنسه ، والاجتماع المهيئ لذلك التعاون : «وعن هذا الفكر تنشأ العلوم» . فيكون الفكر راغباً فى تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات ، فيرجع إلى

---

(٥٠) جـ ١ ص ٦٣ – ٧٢ .

(٥١) ص ٨٢ .

مَنْ سبقه بعلم ، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك ، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقى ذلك عنهم»[٥٢] .

فالتعليم ضرورى وطبيعى فى البشر لحاجة الإنسان إلى معرفة العلوم المختلفة التى لا تتيسر بالفهم والوعى فقط ، بل بملكة خاصة . «والحصول على هذه الملكة فى العلم أو الفن يكون بالتعليم ولهذا كان السَّنَد فى التعليم فى كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند أهل كل أفق وجيل»[٥٣] .

وانتشار التعليم ، وتقدم العلم ، متوقفان على الحضارة ، «والمثال فى ذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والأندلس . واستبحر عمرانهما . وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، ورسخ فيهما التعليم ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً»[٥٤] .

والتفاوت بين الناس ناشئ عن حصول الملكات بواسطة التعليم ، على عكس ما يظنه بعض الناس من أن هذا التفاوت راجع إلى اختلاف فى حقيقة الإنسانية[٥٥] .

والعلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين ، علوم مقصودة بالذات كالعلوم الشرعية والطبيعية والإلهية ، وعلوم آلية ووسيلة لهذه العلوم ، كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات ، والمنطق للفلسفة . وينبغى أن يُوجه الإهتمام إلى علوم المقاصد أكثر من وسائلها ، ولهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ألا يستبحروا فى شأنها[٥٦] .

والقرآن هو أول العلوم التى يتعلمها الصبى ، لأن تعليم الولد للقرآن شعار من شعار الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان . . . وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعض من الملكات .

---

(٥٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠١ .
(٥٣) ص ٣٠٢ .
(٥٤) ص ٣٠٢ .
(٥٥) ص ٤٠٣ .
(٥٦) ٣٩٧ .

«وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده»[٥٧] .

وهذا مما أخذ به جميع المفكرين فى الإسلام .

ثم ذكر ابن خلدون بعد ذلك اختلاف الأمصار فى الشرق والغرب فى طريقة التعليم وما يبدءون به الصبى من العلوم المختلفة كما ذكرنا من قبل[٥٨] .

وعقد ابن خلدون فصلاً عن ضرر الشدة بالمتعلمين ، يدل على بصر شديد بعلم النفس لأن : «من كان مرباه بالعسف والقهر ، سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل . وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه» . وهذا شبيه بما يذكره علماء التحليل النفسانى المحدثون فى وجود عقدة نفسية كامنة فى اللاشعور هى التى تحرك أفعال المرء .

والعسف يفسد فى الصبى معانى الإنسانية ، فيفقد الحمية المدافعة عن نفسه ، ويصير عيالاً على غيره .

لذلك ينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ، ألا يستبدوا عليهم فى التأديب .

على أنه إذا استحق الضرب «فلا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً»[٥٩] .

وهذا هو رأى القابسى .

* * *

والذين ألفوا فى التعليم من المتأخرين عن ذلك ، لم يفعلوا أكثر من تلخيص آراء المتقدمين دون ذكر المراجع التى رجعوا إليها ، كما هى الحال فى أغلب الكتب المؤلفة فى العصور المتأخرة فى جميع العلوم الإسلامية .

ومن هذه الكتب رسالة فى رياضة الصبيان لشمس الدين الإنبابى ، واللؤلؤ

---

(٥٧) ص ٣٩٧ .

(٥٨) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٥٩) ص ٣٩٩ .

النظيم فى روم التعلم والتعليم لشيخ الإسلام أبى يحيى زكريا الأنصارى . وتحرير المقال لابن حجر الهيثمى ، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب البغدادى .

وكل من رجع إلى هذه الكتب يستطيع أن يعثر بسهولة على الأصل الذى استمد منه أصحابها آراءهم . فهى إما لابن مسكويه كما فعل الإنبابى فى نقل رسالة تأديب الصبيان ، أو الغزالى ، كما فعل الأنصارى فى نقل شروط المعلم والمتعلم . أو مما هو معروف فى كتب الفقه والأدب .